

رسائل فائدة

إيضاح البيان عن معنى أم القرآن

سليمان بن عبد القوي، الطوفي، الحنبلي

ت . سنة ٧١٦ هـ

تحقيق

الدكتور علي حسين البواب

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

رسائل نادرة

إيضاح البيان عن معنى أم القرآن

سليمان بن عبد القوى، الطوفى، الحنبلى
ت. سنة ٧١٦ هـ

تحقيق

د. علي حسين البواب

طبعة

١٤١٩ هـ / ٢٠٠٠ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين،
وبعد:

فهذا كتاب من الكتب التي عُنيَت بالقرآن الكريم، ودارت حول سورة
الفاتحة واستنباط بعض الأحكام والفوائد منها، وهو واحدٌ مما ألف علماء
العربية حول القرآن العظيم.

**ومؤلف الكتاب^(١) هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم،
الطوفي، الصرصري نجم الدين.**

ولد في طُوفى - من أعمال صَرْصَر - بعد سنة سبعين وستائة، وتلقَى فيها
العلوم والمعارف، وتردّد على صرصر - وهي على بعد فرسخين من بغداد،
فتلقى العلم على شيوخها، ثم ارتحل إلى بغداد سنة إحدى وتسعين وستائة،

• ورد للباحث ترجمة في العدد ١٨.

(١) للطوفي ترجمة في عدد من المصادر منها: ذيل طبقات الخطابة لابن رجب ٣٦٦/٢، والدرر الكامنة ٢/٢٤٩،
وعني المحدثون من كتب عن الطوفي أو حقق بعض كتبه بالحديث عنه، وأوسع ما كتب عنه وأحسنه: المصلحة
في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي للدكتور مصطفى زيد ينظر ٦٥ - ١١٠. ومقدمة شرح مختصر
الروضة للدكتور إبراهيم بن عبد الله آل إبراهيم - ينظر ١٧ - ٥٢، ٧٥ - ١٤٠، ومقدمة الكتاب نفسه بتحقيق
د. عبدالله التركي ٢١ - ٣٨.

آخذاً ومفيداً من علماء العصر فيها، فحفظ «المحرر» في الفقه الحنبلي لمجد الدين بن تيمية وتعلّم العربية والفرائض والمنطق، وسافر إلى دمشق سنة أربع وسبعمائة، فالتقى بشيوخها ومنهم الإمام تقي الدين بن تيمية، وانتقل إلى مصر سنة خمس وسبعمائة، فأقام بها مدّة، تلقّى على علمائها، وفيها نال مكانة، وذاع صيته بين أئمة الحنابلة وهناك ألف عدداً من الكتب، وحدثه فتنه، وسجن، فغادر القاهرة إلى دمياط، ثم إلى قوص - في الصعيد - حيث أقام فترة، ثم غادرها إلى مكة المكرمة حاجاً عام أربعة عشر وسبعمائة، وزار المدينة المنورة، ثم حج ثانية في العام التالي، وارتحل بعدها إلى بيت المقدس، فمدينة الخليل عليه السلام وفيها وافته المنية سنة ست عشرة وسبعمائة.

أخذ الطوفي في رحلاته عن عدد كبير من علماء الأمصار من الفقهاء والأصوليين والمحدثين واللغويين والنحويين وغيرهم. وممن تلمذ لهم^(١) : علي بن محمد الصرصري، وعبدالله بن محمد الزريراتي، ومحمد بن الحسين الموصللي، وإسماعيل بن علي بن الطبال، وأبوبكر أحمد بن علي القلانسي، وتقي الدين بن تيمية، ومحمد بن أبي الفتح البعلي، ويوسف بن عبدالرحمن المزري، وعبدالمؤمن بن خلف الدمياطي، وأبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي وغيرهم.

وتولّى الطوفي التدريس ونال مكانة في عصره، ووصفه العلماء بالفضل، والمشاركة في العلوم، وسعة المعرفة، وشدة الذكاء، وقوة الحافظة، وكثرة العبادة، والتقلل من الدنيا.

وألف الطوفي عدداً من الكتب في علوم مختلفة، منها^(٢) : الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية - الإكسير في قواعد التفسير - الانتصارات الإسلامية - البلبل في أصول الفقه - تفسير بعض سور القرآن الكريم - جدل

(١) ذكر الدكتور إبراهيم بن عبدالله في مقدمة تحقيقه لشرح مختصر الروضة ٤١ - ٤٧ تسعة عشر شيخاً من شيوخ الطوفي، وترجم لهم. وينظر مقدمة الدكتور عبدالله التركي ٢٢ - ٢٤.

(٢) في مقدمة الدكتور إبراهيم بن عبدالله ١٠٢ - ١٠٤ ذكر لمؤلفات الطوفي، ثم حديث مفصل عن الموجود منها. وينظر المصلحة ٩١ - ١١٠، ومقدمة الدكتور عبدالله التركي ٢٤ - ٣٢.

القرآن - حلال العقد في أحكام المعتقد - درء القول القبيح - شرح الأربعين النووية - الشعار المختار على مختار الأشعار - الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية - مختصر روضة الناظر - موائد الحيس على فوائد امريء القيس - وغيرها.

رُمي الطوفي بالتشيع، بل بالرفض، ونقل ذلك بعض من ترجم له، وكان أكثر من تعرض له وحمل عليه ابن رجب في «الذيل»، فقد جرّحه، وكال له التهم، وذكر بعض الأدلة على ذلك.

واجتهد المحدثون ممن درسوا مؤلفات الطوفي أو كتبوا عنه في ردّ هذه الشبهة، وتحدّثوا عن سببها، وأن الطوفي تكلم عند شيخه سعد الدين الحارثي في القاهره بكلام عدّه الشيخ تطاولاً، فأوكل شمس الدين ابن الشيخ أمر الطوفي إلى الشرط، واتهموه بالتشيع، فحبس وعُزّر، وطيف به في شوارع القاهرة.

وقد قدّم الدكتور مصطفى زيد، والدكتور إبراهيم بن عبدالله أدلة كثيرة واضحة تدلّ على أنه براء من هذه التهمة، وأنه حنبلي النشأة والثقافة، وأنه لم يُعرف عنه منذ كان في بلده إلى أن دخل بغداد ودمشق والقاهرة شيء غير ذلك، وأن أقواله ونصوصه في مؤلفاته تبين بوضوح أنه لا علاقة له بالتشيع والرفض، بل إن فقهه الحنبلي، وعنايته بكتب المحدثين من أهل السنة تدلّ على عكس ذلك، وفي مؤلفاته مناقشات واعتراضات وردود على الشيعة، واعتراض على أصولهم، وأن ما نسب إليه ليس إلا دسيسة ومكيده، وقد حيكت لعدد من العلماء قبله، بل لم ينج منها شيخه ابن تيمية^(١).

إيضاح البيان عن معنى أم القرآن :

وهذا الكتاب الذي نقدم له - جعله المؤلف في فصول : تحدّث في الأول عن معنى «أم» وعن معنى «القرآن». وفي الثاني قسم الكلام إلى مجمل ومبين،

(١) ينظر المصلحة العامة ٧٤ - ٨٨، وشرح مختصر الروضة ٨٢ - ٩٧ وينظر أيضاً رأي الدكتور عبدالله التركي ٣٣ - ٣٧ من المقدمة.

وذكر أنّ لكل منها مراتب . وتحدّث عن سبب الإجمال، وسبب البيان، وعن بعض مراتب الإجمال والبيان في القرآن الكريم . وفي الفصل الثالث بين أن القرآن يشتمل على مقاصد الإيمان من التصديق بالله تعالى والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، وأن هذه المقاصد جميعها في الفاتحة - وأخذ يبيّن ذلك .

وذكر المؤلف أن ما في القرآن من القصص والأخبار تكميل للمقاصد المذكورة، وأن سورة الفاتحة تتضمّن ذلك، كما أن في هذه السورة وعداً ووعداً ثم أشار إلى أن القرآن لا يخرج عن أن يكون ثناء على الله تعالى، أو عبادة له سبحانه، والفاتحة أولها ثناء وآخرها عبادة . ثم ذكر أسماء الفاتحة .

وبعد هذا أورد المؤلف بعض الفوائد، فذكر فضائل بعض السور وأسرار ذلك، وأسباب اختصاصها بما ورد فيها، وتخلّله تفسير موجز لسورتي الفلق والناس .

أما نسبة الكتاب للطوفي فواضحة جليّة، رغم أنني لم أقف على من نسب الكتاب له من القدماء، فقد ذكره إسماعيل باشا البغدادي وهو يعدّ مؤلفات الطوفي^(١)، والكتاب في مجموع يحتوي على عدد من مؤلفاته، كتب في أول وآخر كثير منها اسم المؤلف، والأوضح من ذلك أن المؤلف أحال فيه على كتابه «الرياض النواضر في الأشباه والنظائر» وهذا الأخير مما ذكره له المترجمون، كما أنه أحال على «الإيضاح» في كتابه «قاعدة جليّة في علم الكتاب والسنة»^(٢) .

مخطوطة الكتاب :

يعرف لإيضاح البيان نسخة مخطوطة واحدة، وردت في فهرس مخطوطات برلين، وذكرها بروكلمان^(٣)، ولم يشر إلى غيرها، ولم يهتد الدارسون والمعنيون

(١) هدية العارفين ٤٠٠/١ .

(٢) ينظر ص ١٠٣ من مقدمة شرح مختصر الروضة بتحقيق د. آل إبراهيم .

(٣) تاريخ الأدب العربي - الأصل الألماني ١٠٨/٢ .

بالطوفي إلى غيرها. والكتاب في مجموع يحوي عدّة رسائل للمؤلف، وكتاب «الإيضاح» تحت الرقم ٩٤٠، ويبدأ من ق ٤٩ أ وينتهي في ورقة ٥٧ ب. وفي كلّ صفحة تسعة عشر سطراً.

وقد جعل «الورد» مفهرس مخطوطات المكتبة نهاية الكتاب في الورقة ٦٢، مدخلاً معها تفسير المؤلف لسورتي «الطارق» و«الإنشاق»، وقد رجّحت ألا تكونا منه، وأن تجعلا مستقلّتين، وأنه لا علاقة بينهما وبين الفوائد التي أثبتتها إيضاح البيان، ويرجّح ذلك احتواء المجموع نفسه على تفسير سور «ق» و«القيامة» و«النبا» للمؤلف نفسه، فهذا قوي في نفسه أن تكون سورتا «الإنشاق» و«الطارق» مثلها، وأن تنشر مستقلة^(١).

ورسالة إيضاح البيان - كسائر الكتب في المجموع - كتبت بخط نسخي واضح، في القرن التاسع الهجري تقديراً، وقد نسخت عن نسخة المؤلف التي كتبها بنفسه في القاهرة سنة ٧١١ هـ - في سجنه، وناسخ المخطوطة - كما ذكر في آخر سورة «ق» و«حلال العقد» هو محمد بن عبد الوهاب بن محمد الأنصاري الحنبلي. وقد قابل الناسخ النسخة على الأصل، وأثبت بعض التصويبات.

وعن هذه النسخة حققت الكتاب، ووضّحت ما يحتاج إلى توضيح، وخرّجت ما يجب تخريجه، وعلّقت عليه بعض التعليقات دون إطالة.

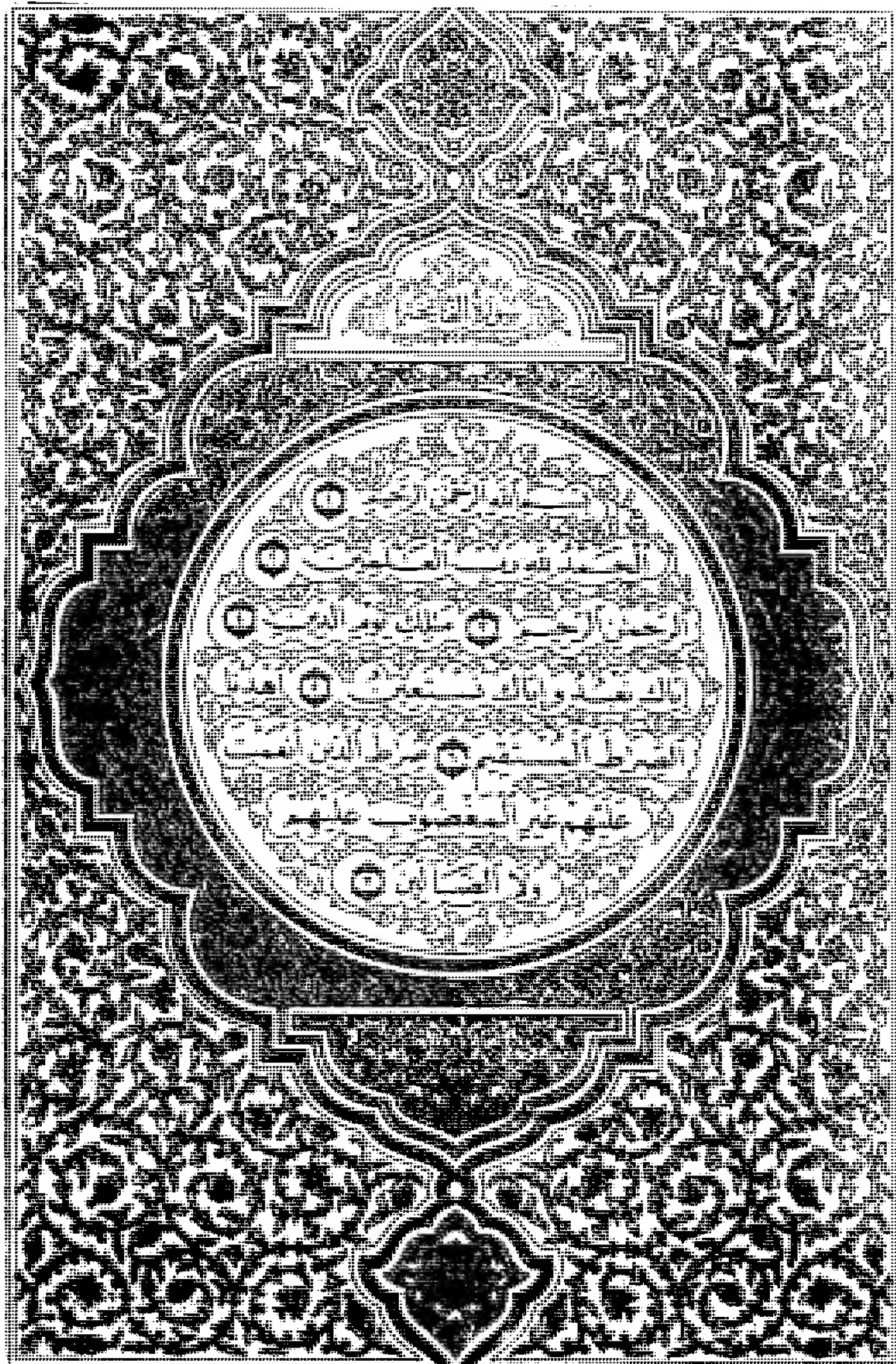
ونسأل الله تعالى أن ينفع بالكتاب، وأن يثينا عليه، وأن يعفو عن تقصيرنا.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) وهي كلها تحت الطبع الآن بتحقيقي.

ايضاح البيان عن معنى ام القرآن (ص) فوايد اخر
للتسليم بحم الدين سليمان بن عبد القوي الطوسي تعهد الله من حقته هـ

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله جمع كأمه
كلها ما علمنا منها وما لم تعلم على نعمة كلها ما علمنا منها وما لم
نعلم على خلقه كلهم ما علمنا منهم وما لم تعلم ولقد كان من فضل
الله علينا عظيماً هذه رسالته ترجمها بإيضاح
البيان عن معنى أم القرآن وسعه فوايد آخر واللام على ذلك
في فصول أحدها بيان حقيقة لفظ الأم والقرآن أم الأم
فيقال هي أصل الشيء أم الإنسان لأنها أصله الذي
خرج منه ومكة أم القرى لأنها أصل القرى لما ذكر من
أنها دحيت من تحتها فيقال إن الأرض كانت رأسه حيث
هي مكة ثم تسطت من هنال قال الله عز وجل والأرض
بعد ذلك دحاها والأرض موشياًها جعل للم الأرض
بساطاً وأشياء ذلك ومعاً للأرض أم البشر لأنها
أصله منها خلق ومنه قوله عز وجل والله ابتكس من الأرض
نباتاً إلى خالق سر من طين وفي شعراً منه
والأرض منشأها وكانت أمنا منها حقيقة وفيها نولد
وكدي قوله عز وجل فأنه هاويه أي لازم الهاويه ملازمه
الطفل أمه التي هي أصله وقيل هذا من قولهم هوت
أمه دعاء عليه ولعل أصله أن يتكس على أم رأسه يقول
النجاه أن الشرطية هي أم الباب وإلا أم الباب في الاستثناء



الثاني أن يكون المعنى الذي يوسوس كائناً أو مستقراً في صدور
 الناس يملون محل الجار والمجرور نصبت على حال وهو أوفق
 للسنة الصحيحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم أن الشيطان
 يحرك من ابن آدم محرك الدم واعلم أن الوسوسة على القلب وإنما
 عبر عنه بالصدر لأنه محل القلب كما عبر عن العقل بالقلب
 لأنه محله في قوله عز وجل إن في ذلك للذكرى لمن كان له قلب وقوله
 عز وجل من الجنة والناس هذا بيان لخمس الخناس وتقسيمه
 إلى نوعين الجنة والناس أي من شر الوسوسة الخناس الذي
 هو من الجنة والناس وهذا سطر إلى قوله عز وجل وكذلك
 جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى
 بعض زخرف القول غروراً وهو معنى قولهم ربنا استمع لبعضنا
 ببعض في بعض الأقوال والله عز وجل أعلم بالصواب قوله عز وجل
 والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب والسماء
 قسم ثم هل هو قسم بنفس السماء لا بها خلق عظيم تملك على عظيم
 قدره طالعها لقوله عز وجل خلق السموات والأرض البرزخ
 من خلق الناس أو قسم رب السماء على قدر حذف المضاف
 فيه قولان أما الطارق فقد فسره الله عز وجل بالنجم الثاقب
 ثم طارقا لظروقه ليلا أي خروجه وظهوره ومنه قول هند بنت
 عتبة يوم أحد كن نيات طارق مضي على التمارق وما أدراك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بجميع مجامده كلها، ما عَلِمْنَا منها وما لم نعلم، على نِعَمه كلها، ما عَلِمْنَا منها وما لم نعلم، على خلقه كلهم ما عَلِمْنَا منهم وما لم نعلم، ولقد كان فضل الله علينا عظيماً^(١).

هذه رسالة نترجمها بـ «إيضاح البيان عن معنى أم القرآن»، ونتبعه^(٢) فوائد أخر.

والكلام على ذلك في فصول :

أحدها : بيان حقيقة لفظ «الأم» و «القرآن» :

أما الأم فيقال : هي أصل الشيء، فمنه أم الإنسان، لأنها أصله الذي خرج منه، ومكة أم القرى لأنها أصل القرى، لما ذكر من أنها دُحيت من تحتها^(٣)، فيقال إن الأرض كانت رابية حيث هي مكة، ثم بُسِطت من هناك^(٤) قال الله عز وجل : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٥) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾^(٦)، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾^(٧) وأشبه ذلك. ويقال للأرض أم البشر، لأنها أصله، منها خلق، ومنه قوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾^(٨)، ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾^(٩). وفي شعر أمية :

والأرض منشأنا، وكانت أمنا منها حقيقتنا، وفيها نولد^(١٠)
وكذا قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾^(١١) أي يلازم الهاوية ملازمة
الطفل أمه التي هي أصله. وقيل : هذا من قولهم : هَوَتْ أمه، دعاء
عليه^(١٢)، ولعل أصله أن يتنكس على أم رأسه.

(٧) سورة نوح، آية ١٧.

(٨) سورة ص، آية ٧١.

(٩) في القرطبي ١١٢/١، ١١٧/٢٠.

فالأرض معقلنا... وفيه ديوان أمية ٢٨ :
فالأرض معقلنا.....

(١٠) سورة القارعة، آية ٩.

(١١) ينظر مجمع الأمثال ٢/٣٩٠.

(١) في الأصل (ولقد كان من فضل الله علينا عظيماً) وقد يكون المراد :

ولقد كان الحمد أو العلم - من فضل الله علينا - عظيماً. وفيه بعد.

(٢) الضمير يعود على «الإيضاح».

(٣) ينظر الطبري ٣٧/١، والقرطبي ١١٢/١، والمفردات - أم.

(٤) سورة النازعات، آية ٣٠.

(٥) سورة الذاريات، آية ٤٨.

(٦) سورة نوح، آية ١٩.

ويقول النحاة : «إن» الشرطية هي أم الباب، و«إلا» أم الباب في الاستثناء، يعني أصله الذي هو أكثر دورانا. وكذلك : روم، أم الروم : (١) أي أصل بلادها التي ترجع إليها ويعتمد عليها ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ ، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) يعني أصله الذي نقل منه، وهو اللوح المحفوظ^(٣).

فأم الكتاب يستعمل بمعنيين : أحدهما هذا - لما ذكر. والثاني : الفاتحة لما نذكر إن شاء الله عز وجل من أنها متضمنة لكليات القرآن إجمالاً .
وأما القرآن فالمراد به الكلام الإلهي الجامع النازل على محمد ﷺ، مشتق من القراء : وهو الجمع، لجمعه ما ذكرنا. ومادة «قرأ» إلى هذا ترجع^(٤).

الفصل الثاني :

إعلم أن الكلام من حيث هو على ضربين : مجمل، ومبين مفصل، والضربان متفاوتان في المراتب، فبعض المجمل أشد إجمالاً من بعض، وبعض المبين أشد بياناً من بعض، حتى ينتهي المجمل إلى غاية الإجمال، والمبين إلى غاية البيان وسبب الإجمال تارة قصور المتكلم عن البيان، وتارة قوة إدراك السامع بحيث يفهم بأدنى إشارة، فيتكل المتكلم على ذلك، فيقتصر على الإجمال. وتارة الأمران : قصور المتكلم وقوة السامع، فلا يبالي المتكلم - كان قاصراً عن البيان أو قادراً عليه، وتارة يعلق المصلحة بالإجمال من إخفاء سر أو امتحان سامع بإدراك معنى خفي، وغير ذلك من الأسباب.

وسبب البيان تارة فصاحة المتكلم وبلاغته، وتارة ضعف فهم السامع، فيحرص المتكلم على إفهامه، وتارة الأمران جميعاً، وتارة اهتمام المتكلم بمعنى

(١) سورة الزخرف، آية ٤ .

(٢) سورة الرعد، آية ٣٩ .

(٣) ينظر القرطبي ١/١١١، ٩/٣١ والدر المنثور.

(٤) في المقاييس ٤/٧٨ : القاف والراء والحرف المعتل : أصل صحيح يدل على جمع واجتماع وفي ٤/٧٩ : وإذا فُهم هذا الباب كان هو الأول سواء .

الكلام، فيحرص على إظهاره في بعض مراتب البيان وغير ذلك من الأسباب.

ومن أمثلة تفاوت مراتب البيان قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . . ﴾ الآيات، فإنه عز وجل أمرهم أولاً بذبح بقرة وهي مسمى مطلق في غاية الإجمال، ثم بين لهم بأنها ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ثم بين لهم أنها ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ ثم بين لهم أنها ﴿ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ فكان ذلك غاية البيان لهم، فحيثذا قالوا : ﴿ أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(١).

ومن أمثلة ذلك أن الله عز وجل بين مواقيت الصلاة في كتابه بقوله عز وجل : ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾^(٢) الآية . ثم بقوله عز وجل : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾^(٣) وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ^(٤) ثم بقوله عز وجل : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾^(٥) . . . وَقَبْلَ غُرُوبِهَا^(٦) الآية . ثم بقوله عز وجل : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾^(٧) الآية .

وهي متفاوتة في البيان على ترتيبها الذي ذكرناه . ثم جاءت السنة في رتبة ثانية من البيان، كحديث ابن عباس وجابر وبريدة^(٧) وغير هذا . ثم جاء كلام الفقهاء في رتبة ثالثة من البيان، فهي في غايته . ثم إن كتب الفقهاء

(١) الآيات من سورة البقرة، ٦٧ - ٧١ . (٢) سورة الطور، الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة الروم، آية ١٧ . (٤) سورة ق، آية ٣٩ .

(٥) سورة طه آية ١٣٠ . وتامها : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ .

(٦) سورة الإسراء، آية ٧٨ .

(٧) حديث ابن عباس في مواقيت الصلاة : « أتم النبي ﷺ ذات ليلة العشاء . . . صحيح مسلم - كتاب المساجد

باب ٣٩ - ٤٤٤/١ . وحديث جابر : « كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالمهاجرة، والعصر . . . المصدر

السابق باب ٤٠ - ٤٤٦/١ . وحديث بريرة : « أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن وقت الصلاة فقال له : . . . المصدر

نفسه باب ٣١ - ٤٢٨/١ ، ٤٢٩ .

متفاوتة في البيان، فبعضها أبين في ذلك من بعض، ولكن جملتها بلغت غاية البيان.

ومن أمثلة ذلك قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ ﴾ ^(١) فهذا إشارة إلى قصتهم إجمالاً، ثم استقصى بيانها في باقي السورة.

وكذلك قوله عز وجل : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢) فهو إشارة إلى قصتهما إجمالاً، ثم استقصى بيانها في سياق السورة.

وكذلك قصص جماعة من الأمم مع أنبيائها، أجملها عز وجل في مكان كسورة «الذاريات» وبينها في مكان كسورة «الأعراف» و «الشعراء» و «هود» ^(٣) وبعضها أبين من بعض بياناً مطلقاً، أو من وجه، ولهذا يستفاد من ذلك في بعض السور ما لا يُستفاد من بعض، ثم استقصى القصاص بيان ذلك، مثل وهب ^(٤) والكسائي ^(٥)، والثعلبي ^(٦)، وأجودها كتاب وثيمة بن موسى بن

(١) سورة يوسف، آية ٧. (٢) سورة القصص، آية ٣.

(٣) من القصص التي جاءت مجملة في الذاريات ثم فصلت في سور الأعراف وهود والشعراء :

(أ) قصة إبراهيم عليه السلام : سورة الذاريات ٢٤ - ٣٧، وسورة هود ٦٩ - ٧٦، وسورة الشعراء ٦٩ - ٨٩.

(ب) قصة موسى عليه السلام : سورة الذاريات ٣٨ - ٤٠، وسورة الأعراف ١٠٣ - ١٧١، وسورة هود ٩٦ - ٩٩، وسورة الشعراء ١٠ - ٦٧.

(ج) قصة هود عليه السلام : سورة الذاريات ٤١ - ٤٤، وسورة الأعراف ٦٥ - ٧٢، وسورة هود ٥٠ - ٦٠، وسورة الشعراء ١٢٣ - ١٣٩.

(د) قصة صالح عليه السلام سورة الذاريات ٤٣ - ٤٥ وسورة الأعراف ٧٣ - ٧٩ وسورة هود ٦١ - ٦٨، وسورة الشعراء ١٤١ - ١٥٨.

٢٠ (هـ) قصة نوح عليه السلام : سورة الذاريات ٤٦، وسورة الأعراف ٥٩ - ٦٤، وسورة هود ٢٥ - ٤٨، وسورة الشعراء ١٠٥ - ١٢١.

(٤) - وهب بن منبه تابعي، عرف بالقصص والإسرائيليات، توفي سنة ١١٤ هـ أو قبلها. ينظر سير أعلام النبلاء ٥٤٤/٤.

(٥) الكسائي : محمد بن عبدالله، من علماء القرن الخامس الهجري، له كتاب : بدء الخلق وقصص الأنبياء، مطبوع. ينظر تاريخ الأدب العربي ٥١/٦. وفي كشف الظنون ١٣٢٨/٢ نسب حاجي خليفة الكتاب للكسائي النحوي، علي بن حمزة.

(٦) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم مفرّ قصصي، توفي سنة ٤٢٧ هـ ينظر سير أعلام النبلاء ٤٣٥/١٧. وكتابه «قصص الأنبياء» مطبوع.

الفرات^(١)، وأبلغ من ذلك بياناً مُعَيَّنة قصصهم لمن عاينها عند وقوعها. وإذا نظرت في كتابنا المسمى بـ «الرياض النواضر في الأشباه والنظائر»^(٢) لاحت لك بارقة كبيرة من البيان ومراتبه إن شاء الله عز وجل.

الفصل الثالث :

إذا عرفت ما قدّمناه من مراتب فاعلم أن القرآن في مراتب بيانه على ذلك : فالفاتحة التي هي أم القرآن مشتملة على مقاصده الكلية من حيث الإجمال، ثم باقي القرآن يبين ذلك في رتبة ثانية من البيان، ثم السنة بيته في رتبة ثالثة من البيان، لأنها بيان القرآن، لقوله عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٣) ثم العيان في الدنيا والآخرة بيته في رتبة رابعة، وهي غاية البيان، إذ لا أبين من العيان، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾^(٤)، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾^(٥) ﴿ وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾^(٦) ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٧)، ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾^(٨) الآيات ونحوها.

ولنشرح ذلك على وجه يظهر، وذلك من وجوه :

أحدها : أن القرآن مشتمل على مقاصد الإيمان، وهي التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كما ثبت ذلك في حديث جبريل في اخذت الصحيح^(٩)، وهذا هو مقصود القرآن بالذات، ولذلك سُمي إيماناً في قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾^(١٠) يعني بالقرآن فيما قاله بعضهم. وهذه المقاصد كلها مشار إليها في الفاتحة :

(١) وثيمة بن موسى بن الفرّات، مؤرخ له وأخبار الردة تدون سنة ٢٣٧ هـ. وفيات الاعيان ١٢/٦. ونسب بروكلمان في تاريخ الادب العربي ٤٥/٣ كتاب بدء الخلق وقصص الانبياء لابنه عمارة.

(٢) ذكره ابن رجب في الذيل ٣٦٧/٢. وحاجي خليفة في كشف الظنون ٩٣٨/١.

(٣) سورة النحل، آية ٤٤. (٤) سورة الاعراف، آية ٥٣. (٥) سورة الانعام، آية ١٥٨.

(٦) سورة الزمر، آية ٤٧. (٧) سورة يس، آية ٦٣. (٨) سورة الاحقاف، آية ٣٤.

(٩) وهو حديث عجمي، جبريل عليه السلام في صورة سائل يسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. ينظر البخاري - الإيمان باب ١/١١٤، ومسلم - الإيمان باب ١/٣٩.

(١٠) سورة المائدة، آية ٥.

أما الإيمان بالله ففي قوله عز وجل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) فإن إيجاب الحمد لله عز وجل يقتضي أنه موجود مستحق له .

وأما الإيمان بالملائكة فهو في ضمن قوله عز وجل ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ العالمون من سوى الله عز وجل ، ومنهم الملائكة ، وأيضاً في ضمن قوله عز وجل : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) ومن جملة المنعم عليهم ذوي الصراط المستقيم الملائكة ، لقوله عز وجل في صفتهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ^(٣) وهذا هو مقصود الصراط المستقيم .

وأما الإيمان بالكتب فقد تضمنه قوله عز وجل : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهو القرآن في أحد الأقوال ^(٤) ، وهي متلازمة : فالقرآن مراد على جميعها قصداً أو التزاماً ، وسؤال الهداية يستلزم الإيمان به ، إذ من لا يؤمن بشيء لا يسأل الهداية إليه ، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع كتب الله عز وجل ، لأنه موافق مصدق لها ، أمر بالإيمان بها .

وأما الإيمان بالرسول فقد تضمنه قوله عز وجل : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ هم صفوة العالمين ، وأبين منه قوله عز وجل : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لأن الرسل صفوة المنعم عليهم . وقد بين الله عز وجل ذلك في قوله عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ ^(٥) الآية . فبدأ بهم : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ^(٦) ، ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي ﴾ ^(٧) ، ﴿ وَبَشِّرْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ ^(٨) الآيات ونحوها .

(١) سورة الفاتحة ، آية ٦ .

(٢) سورة الفاتحة ، آية (٧) .

(٣) سورة التحريم ، آية ٦ .

(٤) بنظر الطبري ٥٧/١ ، والدر المنثور ١٥/١ .

(٥) سورة مريم ، آية ٥٨ .

(٦) سورة الزخرف ، آية ٥٩ .

(٧) سورة النمل ، آية ١٩ .

(٨) سورة يوسف ، آية ٦ .

وأما الإيمان باليوم الآخر ففي قوله عز وجل : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يعني يوم الحساب والجزاء، وحين يُدان الناس بأعمالهم : أي يُحْزَنُونَ .

وأما الإيمان بالقدر ففي قوله عز وجل : ﴿ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ ﴾ إذ فيه بيان أن الإعانة على عبادته منه، والاستعانة به والهداية إليه، وإلى الأول الإشارة بقوله عز وجل : ﴿ فَسُبِّحْهُ لِلَّيْلِ ﴾ (١)، ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ (٢)، ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ (٣) ونحوها وإلى الثاني الإشارة بقوله عز وجل : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ (٤) ونحوها من الآيات المثبتة للقدر.

فأما ما في القرآن من القصص وأخبار الأولين والآخرين فهو خارج مخرج التكملة للمقاصد المذكورة، وربما تضمنه قوله عز وجل : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . . ﴾ إلى آخر السورة، لأن المخبر عنهم في القرآن لا يخرجون عن أن يكونوا منعماً عليهم، أو مغضوباً عليهم، أو مهتدين، أو ضالين، فهذا وجه.

والوجه الثاني أن القرآن مشتمل على الوعد والوعيد، والحلال والحرام، وغيرهما من الأحكام والقصص والأخبار : أما الوعد ففي ضمن قوله عز وجل : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والوعد فيه ظاهر لاشتغاله على صفتي الرحمة والإنعام . وأما الوعيد ففي قوله عز وجل : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ إذ فيه إشارة إلى أنه عز وجل مالك يوم الحساب والجزاء، فيجازي كلا بفعله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (٥) وأيضاً قوله عز وجل : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ لأن صفتي الغضب والضلال تقتضيان ترتب الوعيد عليهما.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٨ .

(٤) سورة الانفطار، آية ١٩ .

(١) سورة الليل، آية ٧ .

(٢) سورة الصافات، آية ٩٦ .

وأما الحلال والحرام ونحوهما من الأحكام ففي قوله عز وجل : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ إذ المراد بالدين الجزاء المستلزم للتكليف بأحكام الأفعال المجازي عليها من إيجاب وحظر وكراهة وندب . وكذا قوله عز وجل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فصرح بلفظ التعبد الذي هو من التكليف الموجب لوجود الأحكام على المكلفين .

وأما القصص والأخبار ففي قوله عز وجل : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة . ويقرره ما مر في الوجه قبله من أن المخبر عنهم إما منعم عليه أو مغضوب عليه ، أو مهتد أو ضال . وما كان من الأخبار المعاديد ، ففي قوله عز وجل : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وهي مذكورة في كتاب «العاقبة» وكتاب البعث والنشور^(١) وغيرها من كتب السنة .

الوجه الثالث : أن القرآن لا يخرج عن أن يكون ثناء على الله عز وجل أو عبادة له سبحانه وتعالى ، والفاتحة أولها ثناء وآخرها عبادة ، أعني دعاء إليها . والعبادة تارة تكون بالدعاء نحو « اهدنا » وهو مخ العبادة كما صرح به الحديث^(٢) ، ودل عليه قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ الآية . وتارة بغير الدعاء نحو : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فهذه ثلاثة أوجه في بيان اشتغال الفاتحة على مقاصد القرآن من حيث الإجمال ، وربما أمكن استخراج غيرها عند إمعان النظر ، لكنني لم أستقصه وإنما أوردت ما ظهر .

(١) ألف عدد من العلماء في البعث والنشور، منهم أبوداود، وأبن أبي الدنيا، والبيهقي . كشف الظنون ١٤٠٢/٢ .

كما ألف عبدالحق الأشيلي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ كتاب «العاقبة» كشف الظنون ١٤٣٧/٢ .

(٢) الحديث في الترمذي - الدعاء ٣٦٦/٢ ، قال : غريب من هذا الوجه ، لا نعرفه إلا من حديث طيبة وينظر فتح الباري ٩٤/١١ .

(٣) سورة غافر، آية ٦٠ .

خاتمة :

تُسمى هذه السورة «الحمد» تسمية لها بأول لفظ منها، و«الفاتحة» لافتتاح القرآن بها، و«أم القرآن» و«الكتاب» لما ذكرنا، و«السبع المثاني والقرآن العظيم» بالكتاب ونصّ السنة في حديث أبي بن كعب^(١). وسُميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة : أي يتكرّر ذكرها. وقيل : لأنها نزلت مرتين بمكة والمدينة.

وتُسمى الواقية والشافية لأنها تقي وتشفى من اتقى واستشفى بها. والرُّقية^(٢) لقوله عليه الصلاة والسلام لأبي سعيد لما رقى بها اللديغ : «وما أدراك أنها رُقِية»^(٣)، ولعل لها أسماء غير ما ذكرنا، والذي استحضرناه الآن هو هذا، والله عزّ وجل أعلم بالصواب.

فصل :

وردت السنة بأن قراءة «إذا زلزلت» تعدل نصف القرآن، وقراءة «قل هو الله أحد» تعدل ثلث القرآن، وقراءة «قل يا أيها الكافرون» تعدل ربع القرآن^(٤)، وهذا يشبه كلامنا المذكور على الفاتحة، والكلام عليه في فصول : أحدها : أنه لا يمتنع ترتّب الأجر الكثير على العمل اليسير لأسباب : منها نفاسة العمل في نفسه، كالكتابة المحررة الجيدة التي يُساوي السطر منها ديناراً، كما يحكي عن بعض الكتاب أنه كان إذا سُئل الصدقة كتب للسائل سطرأ فيبيعه بدينار. ومنها عظم مصلحة العمل، كحركة هندسية يصلح بها

(١) نصّ القرآن، في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ سورة الحجر ٨٧. ونصّ حديث أبي : «هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي فاتحة الكتاب» الترمذي - التفسير ٢٨٧/١١ وقال : حسن صحيح. والنسائي الافتتاح ١٣٩/٢، وأبو داود - الصلاة ١٥٠/٢.

(٢) جمع القرطبي أسماء الفاتحة... وزاد على ما ذكر المؤلف هنا ينظر ١١١/١ - ١١٣، والطبري ٣٦/١، ٣٧، وجمال القراءة ٣٣/١، ٣٤، والدر المنثور ٤/١.

(٣) البخاري - كتاب الطب باب ٣٣ - ١٩٨/١٠.

(٤) الترمذي - ثواب القرآن ٢٢/١١، ٢٥، وينظر البخاري - فضائل القرآن ٥٩/٩، وجامع الأصول ٤٨٥/٨، ٤٩٠، ٤٩٤، وتفسير القرطبي ١٤٦/٢٠، وجمال القراءة ٧١/١ - ٧٥.

قرص ببناء عظيم، أو يجري بها ماء إلى أرض، أو سقف بها اعوجاج في أمر ونحو ذلك ومنها كرم من له العمل، مثل أن يسقط سوط الملك من يده، فيناوله إياه بعض العامة، فيعطيه على ذلك مالاً جزيلاً. ويروى عن الشافعي - رضي الله عنه - أن سوطه سقط من يده، فناوله إياه بعض العامة، فقال الشافعي لغلامه : أءطه ما معك من النفقة، فكان خمسين ديناراً، وقال : لو كان معنا غيرها لأعطيناه^(١)، وذلك لكرمه وسعة مروءته - رضي الله عنه - . وقد يتجه غير ذلك من الأسباب .

وإذا عُرف ذلك فلا يبعد أن يعطى الله عز وجل قاريء سورة «الزلزلة» أجر قاريء نصف القرآن ببعض هذه الأسباب خصوصاً وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن بعض القرآن أعظم وأفضل من بعض، كما ثبت أن الفاتحة أعظم السور^(٢)، وآية الكرسي أعظم الآيات^(٣). فقد تختص هذه السورة بخصائص يعلمها الشرع تقتضي أن يرتب على قراءتها من الأجر ذلك، كما اختص بعض الأشخاص والأزمنة والأمكنة والأحوال بخواص اختصت لأجلها بما ليس لغيرها من جنسها، وذلك كأشخاص الأنبياء والأولياء ظهر على أيديهم من المعجزات والخوارق ما لم يظهر على أيدي غيرهم من الأشخاص، وكما اختص رمضان والأشهر الحرم ويوم الجمعة وليلة القدر ويوم عرفة وعاشوراء ونحوها من الأزمنة بخصائصها المشهورة شرعاً، وكما اختص المسجد الحرام بأن صلاة الفرض فيه أفضل منها في غيره ويسائر خصائصه . واختص المساجد الثلاثة بشد الرحال إليها، وتضاعف الصلاة فيها على غيرها، ونحو ذلك . وكما اختصت حال الجهاد بتضاعف أجر الصوم فيها، كما جاء في الحديث : «من صام يوماً في سبيل الله باعده الله عن النار سبعين خريفاً»^(٤).

(١) في مناقب الشافعي للبيهقي ٢٢١/٢ أنه اعطاه تسعة دنائير أو سبعة، وفي السير ٣٧/١٠ سبعة .
(٢) في حديث رواه مسلم - صلاة المسافرين باب ٤٣ - ١ / ٥٥٤ . . . أبشر بتورين أوتينها، لم يؤت بها نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة وينظر جمال القراء ٥٢/١، ٥٣ .
(٣) ينظر البخاري الوكالة - باب - ١٠ - ٤٨٧/٤، وجمال القراء ٥٥/١ - ٥٧ . (٤) سنن النسائي - الصوم ١٧٤/٤ .

الفصل الثاني :

ينبغي لمن تلا هذه السور الثلاث منفردة، أو في جملة القرآن، بادئاً من أوله أو من آخره في غير الصلاة أن يكرّر سورة «الزلزلة» مرتين، وسورة «الإخلاص» ثلاثاً، وسورة «الكافرون» أربعاً ليستكمل بذلك ثلاث ختمات، أما في الصلاة ففي تكرار السورة خلاف مشهور، وتفصيل بين الفرض والنفل. وينبغي لمن كرّر هذه السور أن يكرّر البسملة في أول كل سورة بعدد قراءتها مرّات، لاحتمال كونها آية من كل سورة.

الفصل الثالث^(١) :

في ذكر ما ظهر لي من مناسبة اختصاص هذه السور بما ذكر، أما توجيه أن «الزلزلة» تعدل نصف القرآن فلأن القرآن لا يخرج عن تقرير أمر معاش الناس ومعادهم.

وهذه السورة اختصّت بذكر أمر المعاد من زلزلة الأرض عند قيام الساعة، وإخراج أثقالها وهم الموت، إشارة إلى البعث. وتحديث أخبارها، وصدور الناس عنها أشتاتاً كأنهم جراد منتشر، ورؤية كلّ عامل ما عمل من خير أو شرّ فلم تتضمّن شيئاً غير ذكر المعاد. فلما اختصّت بجنس نصف مضمون القرآن جاز أن يقال : إنها تعدل نصف القرآن، وصار هذا كما قيل : «إن الفرائض نصف العلم»^(٢) كما كان للإنسان حالاً حياة وموت، وعلم الفرائض هو العلم المتعلّق بإحدى حالتيه وهو الموت، سمّي نصف العلم.

وأما توجيه أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن فلأن القرآن باعتبار قسمة أخرى لا يخرج عن تقرير التوحيد والنبوة وأحكام اليوم الآخر. وهذه السورة اختصّت بتقرير التوحيد. وذكره، لم يذكر فيها غيره، فكانت

(١) في الأصل (الفصل الأول).

(٢) ينظر الحديث وروايته والتعليق عليه في سنن ابن ماجه - الفرائض ٩٠٨/٢، وفتح الباري ٢٥/١٢، وإرواء الغليل ١٠٤/٦.

بهذا الاعتبار تعدل ثلث القرآن، لاشتغالها على ثلث مضمونه وهو التوحيد^(١). وهذه القسمة لا تخالف ما ذكرناه من تضمن القرآن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن تقرير النبوة يتضمن إثبات الملائكة والكتب والرسل، لاستلزام النبوة نبياً يتلقى الوحي عن الله عز وجل بواسطة الملك. وأما توجيهه أن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، فلأن الخطاب في القرآن إما للمؤمنين أو للكفار، والمؤمنون ضربان : أحدهما مؤمن بالكتاب الأول، فخطب بالإيمان بالكتاب الثاني وهو القرآن، كقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٢) يعني : يا أيها الذي آمنوا بالكتاب الأول آمنوا بمحمد والقرآن. الضرب الثاني : مؤمن بالكتاب الأول والآخر، وهم هذه الأمة، خطبوا بتكميل الإيمان من فعل العبادات ونحوها من الفروع نحو : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾^(٣) ، ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاسْكُتُوا﴾^(٤) وأشباه ذلك.

والكفار أيضاً ضربان : ضرب يُخاطب بالدعاء إلى الإيمان نحو : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾^(٥) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآ قَدْ سَلَفَ﴾^(٦) ونحو ذلك.

وضرب يُخاطب بالتبرؤ مما هو عليه نحو : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾^(٧) لا أعبد ما تعبدون. فامر النبي ﷺ أن يخاطبهم بأنه متبرئ منهم وما يعبدون، فكانت هذه السورة ربع القرآن بهذا الاعتبار.

(١) نقل ابن الأثير في جامع الأصول ٤٨٦/٨ عن العلماء : «إن القرآن لا يعدو ثلاثة أقسام، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عبادة، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأركان الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله بثلاث القرآن. » وينظر القرطبي ٢٤٧/٢٠، وفتح الباري ٦١/٩.

(٢) سورة النساء، ١٣٦. (٣) سورة الجمعة، آية ٩. (٤) سورة البقرة، آية ٢٨٢. (٥) سورة البقرة، آية ٢١. (٦) سورة الأنفال، آية ٣٨. (٧) سورة الكافرون، الأيتان ١، ٢.

خاتمة :

قولنا : هذه السورة تعدل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه يحتمل أنها تعدله في أجر قراءته، ويحتمل أنها تعدله في اقتسام مضمونه، وقد أشرنا إلى الاحتمالين جميعاً، والله عز وجل أعلم بالصواب^(١).

فصل :

وردت السنة بتأكيد أمر القلائل : وهي سورة الكافرون والإخلاص والفلق والناس، ويتأكد أمر المعوذات : وهي الثلاث الأخر^(٢)، وقد تكلمنا على الأولين فلتتكلّم على الآخرين.

وإنما سمّيت هذه المعوذات بكسر الواو لأن الله عز وجل أنزلها معوذات لنبيه عليه الصلاة والسلام حين سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، وليعوذ بها أمته، وإن كان لسورة الإخلاص سبب آخر^(٣)، والكلام في نكت :

إحداهنّ : لما كانت الصفات تابعة للذات، كان اسم الذات مقدّماً على الصفات، وسورة الإخلاص مشتملة على اسم الذات، فلذلك قد قدّمت في التعوذ على سورة الفلق والناس لا شتمالهما على أسماء الصفات نحو : ﴿ رَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ رَبِّ النَّاسِ مُلْكِ النَّاسِ ﴾.

الثانية : معنى (أعوذ) ألجأ وألوذ (ربّ الفلق) يعني فلق الصبح، من قوله عز وجل (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)^(٤) وقول عائشة : «كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(٥) وأضاف نفسه عز وجل إلى الفلق لأنه من أعظم الآيات، ولذلك أقسم به في قوله عز وجل : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٦) ويقال : فَلَقَ الصُّبْحِ وَفَرَّقَ الصُّبْحِ وقد قال عز وجل : ﴿ فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾^(٧) فأتى

(١) ينظر فتح الباري ٦١/٩.

(٢) ينظر الترمذي ٢٨/١١، والمسند ٥٣٨/٢، ٥٤٠، ٥٤١، وجمال القراء ٧٢/١ - ٧٥ والقرطبي ٢٠/٢٢٤، ٢٤٧، ٢٥١، وفتح الباري ٦٣/٩، والدر المنثور ٤٠٥/٦، ٤١٦.

(٣) ينظر القرطبي ٢٠/٢٥١، والدر المنثور ٦/٤١٧.

(٤) سورة الأنعام، آية ٩٦.

(٥) البخاري - بدء الوحي ٣ - ٢٢/١، ومسلم الإيمان ٧٣ - ١٣٩/١.

(٦) سورة التكوين، آية ١٨. (٧) سورة الشعراء، آية ٦٣.

بمادة «فلق» و «فرق» فهما بمعنى . وقوله عز وجل : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ هذا عام يتناول كل ما سوى الله عز وجل ، لأنه خلقه . قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ إلى آخر السورة هو من باب عطف الخاص على العام ، لأن (الغاسق) و (النفاثات) و (الحاسد) من جملة ما خلق الله عز وجل . وإنما اختصت هذه بالذكر بعد العموم لأن متعلقاتها مهمة جداً ، وذلك لأن قوام الإنسان ببدنه وعقله ودينه وباقي نعم الله عز وجل عليه . والغاسق إذا وقب : قيل : هو الثعبان إذا وثب وضرب ، وهو يفسد البدن . والنفاثات : السحارات ، والسحر مفسد للعقل ، لأن الإنسان إذا سُحر غلب خياله على عقله فعاد بخيل له ما لا وجود له في الخارج ، وهو مفسد للبدن أيضاً ، ولذلك وجب القود بالقتل به عند جماعة من أهل العلم^(١) . والحاسد يفسد النعمة بالسعي في زوالها ببدنه ونفسه . ومن جملة النعمة الدين الحق ، وقد يسعى الإنسان في إفساد الدين حسداً ، كما حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم كانوا يفعلون ذلك حسداً بالمسلمين ، حتى قال عز وجل : ﴿ وَذَكَرْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾^(٢) ﴿ وَذَاتَ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضِلُّونَكُمْ ﴾^(٣) الآية . وإن قيل : إن الغاسق هو القمر ، فإن له - فيما يقال - تأثيراً في الأجسام الأرضية . كتقطيع الثياب الكتان ، وتمديد الزروع ، ودوران المد والجزر معه في بعض البحار ، فلعل له تأثيرات أخرى فيها شرور .

وإن قيل : إن الغاسق هو الفرج^(٤) - على ما قيل - فشره ظاهر ، وأكثر شرور العالم من جهته .

وإن قيل : هو الليل ، فإن الشر فيه ظاهر مزعج . وأما ظهوره فلانتشار

(١) ينظر تفسير القرطبي ٤٧/٢ ، وفتح الباري ١٠/٢٢٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٠٩ .

(٣) سورة آل عمران ٦٩ .

(٤) لم أفق على هذا التفسير في الكتب المعتمدة وقد ذكر السيوطي في الإتقان ١٨٧/٢ - في غرائب التفسير - بعض الآيات التي فسرت تفسيراً لا يصح الاعتماد عليه ، وذكر هذا من .

الهوام والشياطين فيه من الجن والإنس وغير ذلك. وأما إزعاجه فلأنه يلقي الإنسان نائماً أو ساكناً فيكون له من الروح ما ليس له في النهار.

الثالثة : قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ الربّ والملك والإله مترتبة في العموم والخصوص ، فالربّ أعمها ، لأنه قد يكون ملكاً وقد لا يكون ، وكذلك الملك قد يكون إلهاً وهو الله عز وجل وحده ، وقد لا يكون . وأضاف الله عز وجل نفسه إلى الناس لأنهم من أشرف العالم ، كما كان الفلق من أعظم الآيات ، فإذا تعوذ الإنسان بإله الناس امتنع الشيطان من الإقدام عليه امتناعاً اختيارياً واضطرابياً لعظمة من تعوذ به ، وهذا موجود في عرف الناس .

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ أي الذي يوسوس كما يُنَبِّئ بعدد . والوسوسة في الأصل : الحركة والاضطراب ، قال الأعشى :

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما يناب بريح عشرق زجل^(١)
ووسوسة الشيطان حركة روحانية خفية يُلقيها الشيطان إلى نفس الإنسان بواسطة جريانه منه مجرى الدم ، أو كما يشاء الله عز وجل : ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ الذي يوسوس تارة ويخنس : أي يميل ويسكن تارة . ويقال : إن الشيطان خاتم على قلب ابن آدم ، فإذا غفل عن الذكر وسوس الشيطان^(٢) ، فإذا ذكر الله عز وجل خنس : أي مال وسكت عن الوسوسة ، ومنه ﴿ فَلَا أَقِيمُ بِالْخَنَّاسِ ﴾^(٣) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ^(١٦) يعني النجوم تجري في أفلاكها ثم تخنس : أي تميل للغروب أو تجري في أفلاك استقامتها ثم تميل في أفلاك تداويرها ، ونحوها من أحوال رجوعها .

قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ يحتمل

(١) ديوان الأعشى ص ٥٥ والعشوق : شجر صغير له حب إذا جف وحركه الريح سمع له صوت . والزجل : الصوت العالي .

(٢) الطبري ٢٢٩/٣٠ ، والدر المنثور ٤٢٠/٦ .

(٣) سورة التكوين . الأيتان ١٦/١٥ .

هذا وجهين : أحدهما أن يكون المعنى الذي يوقع الوسوسة في صدور الناس ، فيكون ذلك أعم من أن يكون هو في الصدور أو خارجاً عنها ، الثاني : أن يكون المعنى : الذي يوسوس كائناً أو مستقراً في صدور الناس ، فيكون محل الجار والمجرور نصباً على الحال ، وهو أوفق للسنة الصحيحة ، وهو قوله ﷺ : « **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم** » ^(١) .

واعلم أن الوسوسة على القلب ، وإنما يعبر عنه بالصدر لأنه محل القلب كما عبر عن العقل بالقلب لأنه محله في قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾ ^(٢) وقوله عز وجل : ﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ هذا بيان لخنس الخناس وتقسيم له إلى نوعين الجنة والناس ، أي من شر الوسواس الخناس الذي هو من الجنة والناس ، وهذا نص قوله عز وجل : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ ^(٣) وهو معنى قولهم : ﴿ **رَبَّنَا أَسْمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** ﴾ ^(٤) في بعض الأقوال والله عز وجل أعلم بالصواب .

(١) البخاري - الاعتكاف - باب ٨ - ٤ / ٢٧٨ ، ومسلم - السلام - باب ٩ - ٤ / ١٧١٢ .

(٢) سورة ق ، آية ٣٧ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ١١٢ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ١٢٨ .

مصادر التحقيق

- ١ - القرآن الكريم .
 - ٢ - الإتيقان في علوم القرآن - السيوطي - القاهرة - المكتبة التجارية ١٣١٨ هـ .
 - ٣ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل - لمحمد ناصر الدين الألباني - بيروت : المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ .
 - ٤ - تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - الأصل الألماني - ليون : إبريل ١٩٤٣ م .
 - ٥ - تفسير القرآن الكريم (جامع البيان) - للطبري - القاهرة : مطبعة الحلبي ١٩٥٤ م .
 - ٦ - تفسير القرآن الكريم (الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - القاهرة : دار الكاتب العربي ١٩٦٧ م .
 - ٧ - جامع الأصول من أحاديث الرسول - لابن الأثير - تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط - دمشق : مكتبة الحلواني ١٣٨٩ هـ .
 - ٨ - جمال القراء - لعلم الدين السخاوي - تحقيق د. علي حسين البواب - مكة المكرمة : مكتبة التراث ١٤٠٨ هـ .
 - ٩ - الدر المنثور - للسيوطي - القاهرة : المطبعة الميمنية ١٣١٤ هـ .
 - ١٠ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - لابن حجر العسقلاني - تحقيق محمد سيد جاد الحق - القاهرة : دار الكتب الحديثة ١٣٨٥ هـ .
 - ١١ - ديوان أمية بن أبي الصلت - تحقيق سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب - بيروت : مكتبة دار الحياة ١٩٨٠ م .
 - ١٢ - الذيل على طبقات الحنابلة - لابن رجب - القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٢ م . تحقيق محمد حامد الفقي .
 - ١٣ - سنن الترمذي (مع عارضة الأحوذى) القاهرة : المطبعة المصرية ١٩٣١ م .
 - ١٤ - سنن أبي داود - تحقيق عزة الدعاس وعادل السيد - سوريا - حمص : دار الحديث ١٣٨٨ هـ .
 - ١٥ - سنن ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة : مكتبة الحلبي ١٩٥٢ م .
 - ١٦ - سنن النسائي - مصورة بيروت : دار الفكر ١٣٩٨ هـ .
 - ١٧ - سير أعلام النبلاء - للذهبي - تحقيق مجموعة من المحققين - بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ وما بعدها .
 - ١٨ - شرح مختصر الروضة - للطوفي (الدراسة) إعداد د. إبراهيم بن عبدالله آل إبراهيم - الرياض ١٤٠٩ هـ .
 - ١٩ - صحيح البخاري - استانبول : المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .
- ومقدمة الكتاب بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي - بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤١٠ هـ .

- ٢٠ - صحيح مسلم - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة : مكتبة الحلبي .
- ٢١ - فتح الباري - لابن حجر العسقلاني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة : المكتبة السلفية .
- ٢٢ - كشف الظنون - للحاجي خليفة - مصورة بيروت : دار العلوم الحديثة عن طبعة استانبول .
- ٢٣ - مجمع الأمثال - للميداني - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة : المكتبة التجارية ١٩٥٩ م .
- ٢٤ - المستدرک علی الصحیحین - للحاکم النیسابوری - سوريا - حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية .
- ٢٥ - المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي - د. مصطفى زيد - الطبعة الثانية - القاهرة - دار الفكر العربي ١٣٨٤ هـ .
- ٢٦ - المفردات - للراغب الأصبهاني - القاهرة : الحلبي .
- ٢٧ - مقاييس اللغة - لأحمد بن فارس - تحقيق عبدالسلام هارون - القاهرة : مطبعة الحلبي ١٣٩١ هـ .
- ٢٨ - مناقب الإمام الشافعي - للبيهقي - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة : دار التراث ١٩٧١ م .
- ٢٩ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين - لإسماعيل باشا البغدادي - استانبول : وكالة المعارف ١٩٥١ م .
- ٣٠ - وفيات الأعيان - لابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس - بيروت : دار الثقافة ١٩٦٨ م .

٩٩/٩٧٦٢	رقم الإيداع
977-5250-51-X	الترقيم الدولي

دار المصرى للطباعة
ت: ٣٨٣٦٥١٦ — الهرم

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧